الرحمة في سورة مريم (عليها السلام)

دراسة إيحائية

إعداد
أ.م.د أنوار عزيز جليل
جامعة البصرة كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
E-mail: Anwar.aziz@uobasrah.edu.iq

الملخص

بعد البحث في الدراسة الإيحائية وآلياتها، وجد البحث أن ما يميز الدراسة الإيحائية هو مقدرتها الخاصة على الإيحاء بمعانٍ كثيرة من خلال كلمة واحدة أو عدة كلمات، نظراً لشفافيتها، فضلاً عن إثارتها في النفس لمعان كثيرة تؤثر في المتلقي من خلال كلماتٍ متفردة في سياقات صوتية وصرفية ونحوية. ونتيجة تطبيقها على سورة مريم، واستقراء لفظي الرحمة والرحمن في هذه السورة، رأى البحث أن الرحمة كإيحاء مختلف بين الأنبياء، ونتيجة لذلك اختلفت طريقة إملائها أو كتابتها. كما لاحظ البحث أن لفظ الرحمن يكاد لا يفارق السورة بأكملها وقد جاء بدلالات عديدة، وهنا تكمن الدلالة الإيحائية، إذ أن سبب اقتران آيات العذاب والتوبيخ بلفظ الرحمن فيه إشارة إلى أن رحمة الله شملت حتى العاصين والطغاة والمذنبين، بدليل أن رحمته وسعت كل شيء. وقد يكون ذلك لدلالة إيحائية أخرى، وهي ثبوت صفة الرحمة ورسوخها. أو لدلالتها على الخلو والامتلاء، أي: رحمان ضد غضبان، وإن دلَّ الاثنان على الامتلاء؛ لأن الغضب هو امتلاء بالغيظ لدرجة الانفجار. أو بسبب دلالته الإيحائية على الكثرة والمبالغة، بدليل لاحقة الألف والنون في فعلان. أو بدلالته على أصل الرحمة من المصدر. أو لمقابلته بلفظ الرحمة، ودلالتهما على الرحمة الأبدية، أو دلالته على الوحدانية والكمال الإلهي، أو دلالته على الحضور الذهني المطلق، أو دلالته على حقيقة الرحمة وكليتها، أو دلالته على ذات الله. وهذا ما أوحت به الآيات الواردة في سورة مريم، إلا أن السورة لم تصرح به تصريحاً مباشراً.

الكلمات المفتاحية: الإيحاء، الدلالة الإيحائية، المعنى المركزي، المعنى الهامشي، الرحمة، الرحمن.

Mercy in Surah Maryam (peace be upon her)
An Interpretive Study

Prepared by: Dr. Anwar Aziz Jalil
University of Basra College of Education for Humanities Department of Arabic Language

Abstract

After examining the study of connotation and its tools, the research found that what distinguishes connotation is its unique ability to suggest multiple meanings through a single word due to its transparency. Furthermore, it evokes numerous meanings in the mind, influencing the recipient through unique words within phonetic, morphological, and grammatical contexts. Applying this to Surah Maryam and analyzing the words "mercy" and "the Most Merciful" within

it, the research observed that the connotation of mercy differed among the prophets, resulting in variations in its spelling and writing. The research also noted that the word "the Most Merciful" is almost always present throughout the surah and carries multiple connotations. Herein lies its connotative significance, as the association of verses of punishment and rebuke with the word "the Most Merciful" indicates that God's mercy encompasses even the disobedient, the tyrants, and the sinners, demonstrating that His mercy extends to all things. This may also serve another connotative purpose: to affirm the established and enduring nature of the attribute of mercy. Or because it denotes emptiness and fullness, i.e., Rahman (the Most Merciful) is the opposite of Ghadban (the Wrathful), even though both denote fullness, since ghadab (anger) is a fullness of rage to the point of bursting forth. Or because of its suggestive connotation of abundance and exaggeration, as evidenced by the suffixes alif and nun in fa'lan. Or because it denotes the root of mercy from the verbal noun. Or because it is contrasted with the word rahmah (mercy), and both denote eternal mercy, or because it denotes divine oneness and perfection, or because it denotes absolute mental presence, or because it denotes the reality and totality of mercy, or because it denotes the essence of God. This is what the verses in Surah Maryam suggest, although the surah does not explicitly state it.

Keywords: suggestion, suggestive connotation, central meaning, peripheral meaning, mercy, Ar-Rahman (the Most Merciful).

المقدمة

تعددت المناهج وكثرت المصطلحات التي تدرس النصوص اللغوية، ونكاد نرى التداخل العميق بينها لولا انمياز منهج عن آخر أو تفرد مصطلح عن آخر بخصوصية يصلح من خلالها أن يكون منهجاً مستقلاً لدراسة النص اللغوي.

وهذا ما وجدناه في المنهج الإيحائي أو الدلالة الإيحائية، فماذا يعني هذا المنهج؟ وما هي أدواته؟ وكيف يمكننا من خلاله أن ندرس اللغة؟

والإجابة عن هذه التساؤلات رسمت لنا ملامح المبحث الأول. أما المبحث الثاني فكان تطبيقاً لهذا المنهج على سورة مريم، من حيث معنى الرحمة لغةً واصطلاحاً، ومدى علاقتها وارتباطها في هذه السورة موضوع الدراسة، فضلاً عن لفظ الرحمن وصيغته، ودلالته.

وربما اخترت أن تكون الدراسة دراسة إيحائية لا دلالية مثلاً أو لغوية؛ لأن الإيحاء يختلف من شخص لآخر، ولربما أوحى لفظ الرحمة في السورة لباحث ما مالم يوحهِ لباحث آخر، أو لاحتمال اللفظ الواحد لأكثر من إيحاء ومعنى لا يمكن أن يحمله لفظ آخر، تجعل منه لفظاً متفرداً متميزاً، ومن جانب آخر يكون نصاً تطبيقياً قابلاً للتأويل والاحتمال، بسبب تعدد إيحاءاته. وهذا ما يميز الدراسة الإيحائية.

المبحث الأول
الدلالة الإيحائية

الإيحاء لغة: من الوحي، جاء في تهذيب اللغة: يقال: وحيتُ إلى فلان، أَحي إليه وحياً، وأوْحت إليهِ أُوحِي إيحاءً: إذا أشرتَ إليهِ وأومأتَ، قال العجّاج: (وحى لها القرارُ فاستقرت)*: أي أشار إليها بذلك، وقيل: أمرها. ويقال: وحيتُ الكتابة أَحيه وحياً: أي كتبته، فهو مَوْحىّ. وأَوْحَى إليه: وهو أن يكلمه بكلام يخفيه من غيره. والوحي: الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وأوحَى ربُّكَ إلى النحلِ﴾[1]. وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَأوحَى إليهم أنْ سبِحُوا بُكرَةً وَعَشِياً﴾[2]: أشار إليهم، قيل: والعرب تقول: أَوْحى ووحى، وأَوْمى وومى: بمعنى واحد. وقال عزّ وجلّ: ﴿ وأوحينَا إلى أُمِّ مُوسَى أن أرضِعيهِ﴾[3]: قيل أن الوحي هنا إلقاء في القلب، إلا أن الإعلام أبين؛ لأنه وحي من الله؛ للضمان لها: ﴿ إنَّا رادُوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين﴾[4]. وقيل: أصل الوحي في اللغة كلها إعلامٌ في خفاء، ولذلك صار الإلهام والإشارة والإيماء والكتابة وحياً. وقال الله تعالى: ﴿ ما ما كان لبشرٍ أن يُكلِّمَهُ اللهُ إلا وحياً أو من وراءِ حجابٍ﴾[5]: معناه إلا أن يوحِي الله إليه وحياً فيُعلمه بما يعلم البشر أنَّه أعلمه، إما إلهاماً وإما رؤيا، وإما أن ينزل عليه كتاباً، كما أنزل على موسى، أو قرآناً يُتلى عليه، كما أنزل على محمد، وكل هذا إعلام، وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها[6].

والملاحظ على كلام أبي منصور الأزهري أن الوحي عنده بمختلف معانيه كله إعلام في خفاء. ووافقه في ذلك ابن فارس بقوله: ((الواو والحاء والحرف المعتل، أصلٌ يدل على إلقاء علمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتاب والرسالة، كل ما ألقيته إلى غيرك حتى عَلِمَه فهو وحيٌ... وكلُّ ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه))[7]، أي راجع إلى الإعلام الخفي، وذلك في قوله: (أصلٌ يدل على إلقاء علمٍ في إخفاء).

---

* الديوان: ٢٦١، البيت من رجز العجّاج في وصف خلق الأرض، وهو قوله:
بإذنه الأرضُ وما تَعتَّتِ   وَحَى لها القرارَ فاستقرَّتِ

(١) النحل: ٦٨.
(٢) مريم: ١١.
(٣) القصص: ٧.
(٤) القصص: ٧.
(٥) الشورى: ٥٠.
(٦) ينظر: تهذيب اللغة: ٥/٢٩٦_٢٩٧، وينظر لسان العرب: ١٥/٣٨٠.
(٧) معجم مقاييس اللغة: ١٠٤٦، وينظر لسان العرب: ١٥/٣٧٩.

وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني أن ((أصل الوحي: الإشارة السريعة... وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة. وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: ﴿ فَخرجَ عَلى قَومِهِ مِن المِحرَابِ فَأوحَى إليهِم أن سَبحُوا بُكرةً وعَشِياً﴾[1]، فقد قيل: رمزَ، وقيل: أشارَ، وقيل: كتبَ، وعلى هذه الوجوه قوله:﴿ وكَذلكَ جَعلنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدواً شَياطينَ الإنسِ والجِنَّ يُوحِي بَعضُهُم إلى بَعضٍ زُخرُفَ القَولِ غُرُوراً﴾[2]))[3]. وعنده الوحيُّ رمز وتعريض لا توضيح وتسليط، حتى لو كان الوحي مسموعاً أو مكتوباً.

ومن خلال هذا البحث المعجمي في معنى الوحي نستطيع أن نقول: إن الوحي هو إعلام في خفاء، أو إشارة لمعنى، أو رمز لمفهوم، سواءً أكانت هذه الإشارة، أو هذا الإعلام أو هذا المعنى مسموعاً أم مكتوباً، مجرداً أم محسوساً.

الإيحاء اصطلاحاً: يُعدُّ الإيحاء نوعاً من أنواع الدلالة أو المعنى[4]، إذ أن للدلالة أو المعنى أنواعاً كثيرة، حصرها الدكتور أحمد مختار عمر بأهم خمسة أنواع، وهي[5]:

١- المعنى المركزي: أو الدلالة المركزية، أو الأولي ويسمى أحياناً التصوري أو المفهومي أو الإدراكي. وهذا المعنى هو العامل الرئيس للاتصال اللغوي إلا أنها قد تكون مبهمة في أذهان بعضهم، وهو ما يمكن أن نسميه بالدلالة المعجمية أو المعنى المعجمي.

٢- المعنى الهامشي: أو الدلالة الهامشية، أو المعنى الثاني أو الإضافي، أو العرضي أو التضمني: وهو المعنى الإضافي الذي يملكه اللفظ إلى جانب معناه التصوري الخالص، ويسميها الدكتور إبراهيم أنيس بالدلالة الهامشية، و يعرفها بقوله: ((هي تلك الضلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم))[6].

٣- المعنى الأسلوبي: هو ذلك النوع من المعنى الذي تحمله قطعة من اللغة تكشف الظروف الاجتماعية والجغرافية المحيطة بها، وتكشف العلاقة بين المتكلم والسامع ورتبة اللغة المستعملة: (أدبية، رسمية، عامية، مبتذلة)، ونوع اللغة: (لغة شعر، لغة نثر، لغة قانون، لغة إعلان)، والواسطة: (حديث، خطبة، كتابة).

٤- المعنى النفسي: ويشير إلى ما يتضمنه اللفظ من دلالات عند الفرد، فهو معنى فردي ذاتي، أي أنه معنىً مقيدٍ لمتحدثٍ واحدٍ ولا يتميز بالعمومية، ولا التداول بين الأفراد جميعاً.

٥- المعنى الإيحائي: وهو موضوع الدراسة ومفصلها: هو ذلك النوع من المعنى الذي يتعلق بكلمات ذات مقدرة خاصة على الإيحاء نظراً لشفافيتها.

وكما نلاحظ فإن علماء الدلالة جعلوا المعنى الإيحائي منفرداً عن غيره من المعاني، ولكن بالزيادة التي أضافها أولمان، والذي قد حصر تأثيرات هذا المعنى في ثلاثة مستويات:(الصوتي،

---

(1) مريم: ١١.
(2) الأنعام: ١١٢.
(3) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٥٨.
(4) ينظر: علم الدلالة: ١١.
(5) ينظر: علم الدلالة: ٣٦- ٤١.
(6) دلالة الألفاظ: ١٠٧.

الصرفي، والدلالي)[١] يمكننا أن نقول: إن المعنى الإيحائي يمكن أن يشتمل على المعاني جميعها مؤطرة بالمعنى المركزي أو الدلالة المركزية أو المعنى الأول الذي جاء به اللفظ، ومتجاوزاً لها في الوقت ذاته ليبين المعنى الهامشي المصاحب للفظ.

وفي ذلك يقول الدكتور محمود السعران: ((إن الكلمة في اللغة لها غير المعنى القاموسي العام، وغير المعنى الذي قد يفهم من السياق، إيحاءات وارتباطات نتجت عن الحياة المشتركة، التي حييها أصحاب اللغة))[٢].

وما يؤكد ما ذهبنا إليه هو دراسة الغربيين للمعنى، فإنهم يميزون بين مفهومين متميزين، هما: الإحالة والإيحاء، والأول يقابل الدلالة المركزية، والثاني يقابل الدلالة الهامشية، أو المعنى وظلال المعنى، أو المعنى والمفهوم، أو المعنى والإشارة[٣].

ويضيف الدكتور السعران فضلاً عمّا سبق مصطلحي: المضمون المنطقي والمضمون النفسي، ويعرف المضمون المنطقي بقوله: ((هو المعنى الذي ينص عليه القاموس في الأغلب، يكون الاشتراك في فهمه واحداً أو شديد التقارب، ولكن المضمون أو الارتباط النفسي يختلف من متكلمٍ لمتكلمٍ آخر اختلافاً كبيراً، ولا يمنع هذا من أن يشترك جمهور المتكلمين باللغة في طائفة كبيرة من إيحاءاته ومما يرتبط به من ظلال المعاني))[٤]. وهو بذلك يدخل العناصر غير اللغوية في تحديد المعنى أيضاً[٥].

ويعرفها الدكتور أحمد بدوي طبانة بقوله: ((ومعنى إيحاء الكلمة إثارتها في النفس معاني كثيرة أحاطت بها مع مرور الزمن، حتى صار النطق بالكلمة مشيراً إلى هذه المعاني، وإن لم تذكر قواميس اللغة هذه المعاني))[٦]. إذن ما يميز الدراسة الإيحائية هو الجانب العاطفي أو النفسي الذي يؤثر في المتلقي من خلال معانٍ متفردة في سياقات خاصة.

وهذا ما استوقفت عنده الدراسة في سورة مريم، إذ ما الداعي، أو ما الدلالة الإيحائية التي دعت إلى ذكر الرحمة أو الرحمن دون غيرهما مع آيات العذاب والمعذبين؟ هل هي رحمة بهم أم توبيخاً لهم؟.

---

(1) ينظر: المعنى والأسلوب: ١٣-١٧، (غير مترجم)، نقلاً عن: علم الدلالة: ٣٩-٤٠.
(2) علم اللغة، السعران: ٢٦٩.
(3) ينظر: المعنى وظلال المعنى: ١٨١-١٨٥.
(1) علم اللغة، السعران: ٢٧٨.
(2) المصدر نفسه: ٢٦٣.
(3) أسس النقد الأدبي عند العرب: ٤٢٤.

المبحث الثاني
الرحمة في سورة مريم

الملاحظ أن لفظي الرحمة والرحمن يكادان لا يفارقان السورة بأكملها، حتى أن آيات العذاب والتوبيخ اشتملت على هذين اللفظين، بل أن السورة ابتدأت بذكر الرحمة في قصة زكريا (عليه السلام): ﴿ ذِكرُ **رَحمَتِ** رَبّكَ عَبدَهُ زَكَرِيّا﴾[١]،

وجد الاستقراء في السورة أن لفظ الرحمة ورد (أربع مرات)، ولفظ الرحمن ورد (ست عشرة) مرة في السورة بأكملها. واللفظ الأولى جاء بصيغة المصدر أما اللفظ الثاني فجاء بصيغة الصفة المشبهة.

والمصدر: هو ما دلّ على حدث غير مقترن بزمن، أي أن المصدر جاء للدلالة على مجرد الحدث دون الذات والزمن[٢]، اي أن المصدر يدل على الحدوث والتجدد في اللازمان واللامكان؛ لعدم اقترانه بزمن معين. والرحمة: هي ((الرقة، والمغفرة، والتعطف))[٣]، والآيات التي اشتملت على هذه الصيغة أو هذا اللفظ هي قوله تعالى في زكريا: ﴿ذِكرُ **رَحْمَتِ** رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّاً ۞ إذْ نادى رَبَّهُ نداءً خَفّيّاً۞قال رَبِّ إني وَهنَ العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيباً ولمْ أكن بدعائكَ رَبِّ شقيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا۞يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا۞يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا۞ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا۞قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[٤].

وقال في حقِّ مريم العذراء: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا۞فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا۞قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا۞قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا۞قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا۞قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ **وَرَحْمَةً** مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[٥].

وقال فيما وهبَّ لإبراهيم (عليه السلام): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا۞إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا۞يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

---

(1) مريم: ٢.
(2) ينظر: جوهر القاموس: ٢٥٩.
(3) القاموس المحيط: ١٠٢٥، مادة (ر.ح.م).
(4) مريم: ٢-٩.
(1) مريم: ١٦-٢١.

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا۞يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا۞يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا۞قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا۞قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا۞وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا۞فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا۞وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن **رَّحْمَتِنَا** وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(١).

وفيما وهبه لموسى (عليه السلام): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا۞وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا۞وَوَهَبْنَا لَهُ مِن **رَّحْمَتِنَا** أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾(٢).

وبما أن المصدر يدل على الحدث دون الذات والزمن، فهذا يعني أن الرحمة التي اختصها الله تعالى بهذه البيوت النبويّة هي رحمة متجددة في كل زمان ومكان. وكما يمكننا أن نلاحظ أن هناك تشابه واختلاف في الآن نفسه في هذ اللفظ، ففي قصة زكريا (عليه السلام) جاءت التاء فيها مفتوحة مضافة إلى ربك: ﴿**رَحْمَتِ** رَبِّكَ﴾، وهي مضافة إلى الخبر (ذكرُ). وفي قصة مريم (عليها السلام) وردت بتاء مربوطة مجردة من الإضافة: ﴿**وَرَحْمَةً** مِّنَّا﴾، وهي منصوبةً عطفاً على آية. وفي قصتي إبراهيم وموسى ذكر لفظ الرحمة مضافة إلى ضمير(نا) الفاعلين: ﴿مِن **رَّحْمَتِنَا**﴾، وهي جار ومجرور متعلق بالفعل (وهبنا).

وقيل: إنها إنما فتحت في الموضع الأول في قصة زكريا، وربطت في الموضع الثاني في قصة مريم؛ لأنها جاءت على الأصل الذي هو التاء، ((فقد اتفق معظم علماء العربية*على أن التاء هي الأصل في علامة التأنيث. وأن الهاء تخلفها في الوقف))(٣)، ذلك أن كاتب الوحي كان إذا وصل الكلام كتب تاء على الأصل، وإذا وقف كتب هاء؛ لأنها تخلفها في الفصل، إلا أن أبا بكر الأنباري له رأي مختلف، إذ يقول: ((كل ما في كتاب الله من ذكر الرحمة فالوقف عليه بالهاء، إلا سبعة أحرف... في مريم: ﴿ذِكْرُ **رَحْمَتِ** رَبِّكَ﴾(٤)))(٥)، أي أنه يرى أن التاء هنا لإيراد الوقف. وقال في موطن آخر: ((المواضع التي يوقف عليها بالهاء الحجة فيها اتباع المصحف، وإنما كتبوها في المصحف بالهاء؛ لأنهم بنوا الخط على الوقف. والمواضع اللاتي كتبوها بالتاء الحجة فيها أنهم بنوا الخط على الوصل))(٦)، أي أن الآية موطن الاستشهاد هي لوصل الكلام لا للوقف.

---

(2) مريم: ٤١-٥٠.

(3) مريم: ٥١-٥٣.

*ينظر: سر صناعة الإعراب: ١٥٩/١، وأمالي ابن الشجري: ٢٥/٣، وشرح المفصل: ٣٥٣/٣، وكشف الوافية في شرح الكافية: ٣٢٧.

(1) ينظر: رسم المصحف: ٢٢٧.

(٤) مريم: ٢.

(٥) كتاب إيضاح الوقف والابتداء: ٢٨٣/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٨٧/١.

ويرى البحث أن الرأيين يكادان يكونان متشابهين، إلا أن الدراسة الإيحائية تقودنا إلى معنى آخر ألا وهو أن الرحمة الأولى كانت واسعة ومنفتحة؛ لأن من استذكرها أو استحضرها هو نبي الله زكريا، لذا هو يعلم مدى سعة هذه الرحمة؛ لأنها مضافة إلى الرب، فهي معرفة، أي معروفة عنده (عليه السلام). وقد جاء الإيقاع الصوتي لهذا اللفظ ملائماً ومناسباً مع المعنى، إذ التاء صوت شديد انفجاري، لكنه مهموس في الوقت نفسه(١)، وبذلك أوحى بسعة وامتلاء هذه الرحمة الرحيمة. جاء في كتاب الكليات لأبي البقاء أيوب الكفوي: أن الرحمة في القرآن أعم وأشمل، فقد تأتي بمعنى الإسلام، وقد تأتي بمعنى الإيمان، وتارة تأتي بمعنى الجنة، وتارة بمعنى المطر، أو النعمة، أو النبوة، أو القرآن، أو الرزق، أو النصر، أو العافية، أو المودة، أو السعة... إلخ(٢)

أما الدلالة الإيحائية للرحمة في قصة مريم فإنما جاءت نكرة مبهمة عند السيدة؛ لأن من استحضرها أو استذكرها هو الوحي جبرائيل (عليه السلام) لا مريم (عليها السلام)، لذا جاءت بهاء الوقف؛ لأن السيدة مريم لم يكن لها اطلاع مسبق بالوحي والرحمة الإلهية أو الفيض الإلهي.

أما في قصتي إبراهيم وموسى (عليهما السلام)، فالأمر مشابهٌ لزكريا (عليه السلام). وفي هذه المواضع الأربعة نجد مصداقية هذه الرحمة مع الأنبياء جميعهم الذين ذكرت الرحمة في قصصهم، بدءاً بزكريا، ومروراً بمريم وانتهاءً بإبراهيم وموسى.

أما فيما يخص (الرحمن) فقد تبيَّنت لنا بعض الآيات التي جاء فيها لفظ الرحمن، كما في قصة مريم العذراء (عليها السلام): ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ **بِالرَّحْمَنِ** مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا... فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ **لِلرَّحْمَنِ** صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٣)،

كما ورد ذكره في قصة إبراهيم، وعلى لسان خليل الله (عليه السلام): ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ **لِلرَّحْمَنِ** عَصِيًّا۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ **الرَّحْمَن** فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(٤)، ثُمَّ بعد أن يذكر موسى وإسماعيل وإدريس (عليهم السلام)، يذكر لفظ الرحمن مقترناً بكل هؤلاء الأنبياء، فيقول: ﴿أُولئكَ الَّذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِّن النَّبيِّين مِن ذُريةِ آدمَ ومِمَّنْ حملنَا معَ نُوحٍ ومن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ومِمَّن هدينَا واجتبينَا إذا تُتلى عليهم آياتُ **الرَّحْمَنِ** خرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾(٥).

حتى يكاد لفظ الرحمن لا يفارق السورة بأكملها، فكما يرد ذكرها مع المؤمنين يرد ذكرها مع الكافرين، ولعل ذلك من أسباب إيراد هذا اللفظ أو هذه الصفة دون لفظ أو صفة الرحيم؛ لأنها خاصة بالمؤمنين، فـ ((الرحمن: تعم رحمته المؤمن والكافر، والصالح والطالح. وأما الرحيم:

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية: ٥٣.
(١) ينظر: الكليات: ٤٧١-٤٧٢.
(٢) مريم: ١٨،٢٦.
(٣) مريم: ٤٤-٤٥.
(٤) مريم: ٥٨.

فخاص بالمؤمنين))[1]، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدنٍ الّتي وَعَدَ **الرَّحْمَنُ** عِبادَهُ بِالغَيبِ إنَّهُ كَانَ وَعدُهُ مَأتِيّاً﴾[2]، ﴿ ثُمَّ لَننزِعنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ أيُّهم أشدُّ على **الرَّحْمَنِ** عِتِيّاً﴾[3]، و﴿ قُلْ مَن كانَ في الضلالةِ فَليَمدُدْ لهُ **الرَّحْمَنُ** مدّاً حتى إذا رأوا ما يوعَدُونَ إما العذابَ وإما الساعةَ فسيعلمونَ مَنْ هوَ شَرٌّ مَّكاناً وأضعفُ جُنداً﴾[4]، و﴿ أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتنا وقالَ لأُوتينَ مالاً وولداً۝أطَّلَعَ الغيبَ أمِ اتخذَ عندَ **الرَّحْمَنِ** عهداً﴾[5]، و﴿يَومَ نَحشُرُ المُتَّقِينَ إلى **الرَّحْمَنِ** وَفداً﴾[6]، و﴿لَا يَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ **الرَّحْمَنِ** عَهْداً﴾[7]، و﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ **الرَّحْمَنُ** وَلَداً۝ لَقَدْ جِئتُمْ شَيْئاً إدّاً ۝تَكَادُ السَّمَواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً۝أنْ دَعَوْا **للرَّحْمَنِ** وَلَداً۝ومَا يَنْبَغِي **للرَّحْمَنِ** أنْ يتخذَ وَلَداً۝إنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَواتِ والأرْضِ إلّا آتِي **الرَّحْمَنِ** عَبْداً﴾[8]، و﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ **الرَّحْمَنُ** وُدّاً﴾[9].

جاء في معاجم اللغة: أن الرحمن والرحيم اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، فالرحمن: الرقيق، والرحيم: العاطف، واشتقاقهما من الرحمة، وقيل إنهما صفتان معناهما ذو الرحمة[10]. فهناك من جعلهما اسماء، وهناك من جعلهما صفات. وقد ذكر الدكتور أحمد مختار عمر ذلك في مدخل كتابه (أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة)، ويرى أن ما يستحق أن يسمى اسماً هو لفظ الجلالة الله فقط، وأن ما عداه، وهي التسعة والتسعون المشهورة، هي صفات عليه، وأن هذه الصفات غير محصورة ولا محدودة، ولذلك نراه في كتابه يذكر عدداً من الصفات فاقت العدد التسعة والتسعين[11].

لكننا إذا استفتينا القرآن الكريم في ذلك نجده يقول: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[12]، فهي أسماء. وحل هذا الإشكال ما ذكره أبو البقاء أيوب الكفوي: ((قيل: جميع أسماء الله ثلاثة أسماء: الذات، وأسماء الأفعال، وأسماء الصفات))[13]، إذن الرحمن والرحيم من أسماء صفاته.

إذن إذا كانت الرحمن والرحيم صفتين مشبهتين، وكانت الأولى على وزن فعلان والثانية على وزن فعيل، وأن كل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، فما هو الفرق بين الزيادتين؟ وما هي الدلالة الإيحائية للصفة المشبهة (الرحمن) في السورة؟ وما الفرق بينها وبين صفة (الرحيم)؟ وهل يمكن إيراد إحداهما بدلاً من الأخرى؟.

---

(١) أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة: ٦٥.
(٢) مريم: ٦١.
(٣) مريم: ٦٩.
(٤) مريم: ٧٥.
(٥) مريم: ٧٨.
(٦) مريم: ٨٥.
(٧) مريم: ٨٧.
(٨) مريم: ٨٨-٩٣.
(٩) مريم: ٩٦.
(١٠) ينظر: تهذيب اللغة: ٤٩/٥، والمحكم: ٢٥٣/٣-٢٥٤، ولسان العرب: ٢٣١/١٢، مادة (ر.ح.م).
(١) ينظر: أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة: ٥-٦.
(٢) الأعراف: ١٨٠.
(٣) الكليات: ٤٦٨.

الصفة المشبهة: وصف مشتق من الفعل اللازم للدلالة على ثبوت الوصف في موصوفه، واستمراره فيه دون حدوثه في الأزمنة جميعها. ومعنى الثبوت الاستمرار واللزوم، أي أنها تدلّ على ان الصفة ثبتت في صاحبها على وجه الدوام(١).

جاء في تفسير روح المعاني قوله: ((الرحمن الرحيم المشهور أنهما صفتان مشبهتان بنيتا لإفادة المبالغة، وأنهما من (رحِم) مكسور العين، نقل إلى (رحُم) مضمومها، بعد جعله لازماً، وهذا مطرد في باب المدح والذم، وأن الرحمة في اللغة رقة القلب))(٢). معنى ذلك أن (الرحمن والرحيم) هما في الأصل من الفعل المتعدي (رحِم) مكسور العين، ثم اشتقا من الفعل اللازم (رحُم) مضموم العين، من الباب الخامس (فَعُل يَفعُل) الدال على الأوصاف الخِلْقية التي لها مُكث؛ لأن الصفة المشبهة يغلب بناؤها من الفعل اللازم من الباب الرابع (فَعِل يَفعَل)، مثل: (فرِح يفرَح) ومن الباب الخامس (فَعُل يفعُل)، مثل: (شرُف يشرُف)(٣).

إن كلام الآلوسي هذا ينطبق على (رحيم)، فنقول: محمدٌ رحيم؛ لأنه على وزن (فَعيل)، وهو وزن مشترك بين البابين الرابع والخامس (فعِل يفعَل، فعُل يفعُل)، كـ (بخيل وكريم)، فالبخيل من بخِل بالكسر والكريم من كرُم بالضم، بمعنى أن (رحيم) يمكن أن يصاغ من (رحِم) بالكسر ويمكن أن يصاغ من (رحُم) بالضم. أما وزن فعلان فلا يأتي إلا من الفعل اللازم من باب (فرِح)(٤). وهذا ما نقله أبو حيان الأندلسي بقوله: ((الرحمن فعلان من الرحمة، وأصل بنائه من اللازم من المبالغة، وشذ من المتعدي وآل فيه للغلبة))(٥)، أي أن بناءه جاء من الفعل المتعدي (رحِم) من الشذوذ، فهو متعدي، فنقول: رحِم الولدُ الفقيرَ، فهو فعل متعدٍ، أي أن الولد أوقع الرحمة على الفقير. أما قولنا: رحُم الولدُ، فهو من الفعل اللازم، أي صار رحيماً أو ذا رحمةٍ.

جاء عن الاستراباذي بقوله: ((وما يجيء من غير باب (فَعِل) بكسر العين، بمعنى الجوع والعطش قليل، وهو محمول على باب (فَعِل)، كما حمل مَلآن وقَرْبان عليه))(٦)، ويرى البحث أن ملآن من ملِئَ على وزن (فعِل)، بكسر العين. أما قربان، فقد أوضحها الاستراباذي بقوله: ((قَرْبان إذا قارب الامتلاء...، وإن لم يستعمل قَرِبَ...، بل قَارَبَ...، حملاً على المعنى: أي امتلأ))(٧) بمعنى: أن قربان ليست من قرِب، ولكنه حُمل أو نُقل إلى وزن فَعِل، حتى تشتق منه الصفة المشبهة على وزن فَعْلان.

وعلى كلا الفعلين يمكن أن ننظر إلى الرحمن من الفعل المتعدي (رحِم) بمعنى وقوع رحمته على خلقه. ويمكن أن ننظر إلى الرحمن من الفعل اللازم (رحُم) على وجود الرحمة وثبوتها في الله، فهو صفة مشبهة. **وهذه الدلالة الإيحائية الأولى.**

---

(١) ينظر: شرح الشافية: ١٤٣-١٥٠، وشرح المراح في التصريف: ١١٨، وشرح الحدود النحوية: ٩٢.
(٥) تفسير روح المعاني: ٦١/١.
(٣) ينظر: شذا العرف: ٤٧-٤٨.
(٤) ينظر: المصدر نفسه.
(٣) تفسير البحر المحيط: ١٢٥/١.
(٦) شرح شافية ابن الحاجب: ١٥١/١.
(٧) المصدر نفسه: ١٤٧/١.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يعني هذا: أنه يمكن أن نشتق الصفة المشبهة من الفعل المتعدي إذا دلَّ معناه على المبالغة في صفة ثابتة راسخة في الموصوف لا على حدث متجدد يقع وينقضي، إذ العبرة في الصفة المشبهة ليست بالتعدي واللزوم وإنما بثبوت المعنى ورسوخه في الذات.

جاء في شذا العرف: ((ولك أن تحول كل فعل ثلاثي إلى هذا الباب [أي: الباب الخامس: باب فَعُل يَفعُل]، للدلالة على أن معناه صار كالغريزة في صاحبه. وربما استعملت أفعال هذا الباب للتعجب، فتنسلخ عن الحدث))[١]. بمعنى أن (الرحمن) مشتق من الفعل اللازم (فَعُل) بضم العين للدلالة على ثبوت المعنى ورسوخه في الذات حتى صارت مستقرة فيه. وهذا يتفق مع رأي الآلوسي السابق الذكر، **وهذه الدلالة الإيحائية الثانية.**

وجاء في كتاب (الشافية في التصريف): إن ((فعِل يكثر فيه العلل والأحزان وأضدادها، كسقم، ومرِض، وبرِئ، وحزِن، وفرِح... وفعُل لأفعال الطبائع ونحوها، كحسُن وقبُح، وكبُر وصغُر، فمن ثم كان لازماً))[٢]، أي أن (فعِل، وفعُل) الاثنان يجيئان في الشيء وضده. وذكر في موطن آخر: إن الصفة المشبهة ((تجيء من الجميع [أي من: فعِل، وفعُل، وفعَل*] بمعنى الجوع والعطش وضدهما على فَعْلان، نحو: جوعان وشبعان، وعطشان وريَّان))[٣]. بمعنى أن الصفة المشبهة من (رحِم ورحُم) يأتي البابان منهما على رَحْمن؛ لدلالة وزن (فَعْلان) على الخلو والامتلاء[٤]، والخلو والامتلاء من الأضداد أيضاً، فعطشان ضده ريَّان، وجوعان ضده شبعان، وعليه يمكن أن نقول: بما أن الغالب أو الأكثر في صيغة فعلان الشيء وضده، هذا يعني أن لفظ (رحمن) جاء على صيغة (فعلان)؛ لإيحاء هذه الصيغة بأن لفظ الرحمن قد يحمل الضد، وهو غضبان أي انتفاء الرحمة أو شدة العذاب، بدليل الحديث المشهور الذي قابل بين الضدين: ((إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي))[٥].

يؤيده قول الدكتور فاضل السامرائي في كتابه (التعبير القرآني): ((إن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو: عطشان، وجوعان، وغضبان ونحوها، فإن العطش في عطشان ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول، وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف (فعيل) فإنه يدل على الثبوت، وذلك نحو: كريم، وبخيل، وطويل، وجميل، فإن هذه صفات ثابتة، فليس (طويل) مثل (عطشان) في الوصف، ولا (قبيح) مثل (جوعان)))[٦]. هذا يعني أن الرحمن تدل على التجدد والحدوث، وفعيل تدل على الثبوت والاستقرار. والتجدد والحدوث أو التغيير وعدم الثبوت يناسب وزن فعلان بدلالته على الضدين رحمن وغضبان، **وهذه دلالة إيحائية ثالثة.**

---

[١] شذا العرف: ١٧-١٨.
[٢] الشافية في علم التصريف: ١٩.
* كما يمكن أن يأتي وزن فعَل بفتح العين على فعلان، نحو: أحمَق: حَمقان.
[٣] المصدر نفسه: ٢٥.
[٤] ينظر: الكتاب: ٢٣/٤، وشذا العرف: ١٧.
[٥] صحيح البخاري: ١٨٢٧، الحديث: ٧٤٠٤.
[٦] التعبير القرآني: ٣٨.

هذا من جانب، ومن جانب آخر دلالة صيغة فعلان على الامتلاء **فيه دلالة إيحائية رابعة،** ألا وهي امتلاء صفة الرحمة وشدتها، وفيضها وشمولها، وهذا مناسب لسورة مريم؛ لأن السورة يغلب عليها العطاء الإلهي، والهبات الخارقة، والرحمة بالأنبياء، ونجاة الضعفاء، والمغفرة للتائبين.

ومن نافلة القول الإشارة إلى ما ورد في كتاب بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية الذي جاء فيه: ((إن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف، وكذلك هذه الصفة... فكان اللفظ مضارعاً للفظ التثنية؛ لأن التثنية ضعفان في الحقيقة))[١]. ومعنى قوله هذا: أن الرحمن يضارع أو يشابه الاسم المثنى. والمثنى أو التثنية: هي ضم اسم إلى اسم مثله إذا اتفق اللفظان، وزادوا عليه زيادة تدل على التثنية، فصارا في اللفظ اسماً واحداً، وإن كانا في الحكم والتقدير اسمين، فإذا ثنوا الاسم المرفوع زادوا في آخره ألفاً ونوناً في حالة الرفع، وياءً مفتوحاً ما قبلها ونوناً مكسورةً في حالتي النصب والجر، فالألف والياء عوضاً عن الاسم المحذوف[٢]. إذن المبالغة من حيث لاحقة الألف والنون الدالة على المثنى، أو الدال على أكثر من واحد، لا من حيث صيغ المبالغة؛ لأنه لا توجد صيغة مبالغة على وزن فعلان، **وهذه دلالة إيحائية خامسة.**

وقد ورد ما يؤيد هذا المعنى في تفسير الكشاف للزمخشري، قوله: ((الرحمن فعلان من رحِم، كغضبان وسكران، من غضِب وسكِر. وكذلك الرحيم فعيل منه، كمريض وسقيم من مرِض وسقِم. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا. ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى))[٣].

ومثله في لسان العرب: ((الرحمن الرحيم، بنيت الصفة الأولى على فعلان؛ لأن معناه الكثرة، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء، وهو أرحم الراحمين. فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن؛ لأن الرحمن مقصور على الله عزّ وجلّ، والرحيم قد يكون لغيره))[٤]. وهذا يشير إلى أن في الرحمن كثرة ومبالغة أوسع منها في الرحيم.

وقد جمع القرآن الكريم بين هاتين الصفتين في كثير من السور القرآنية[٥]، إلا أنه في سورة مريم اقتصر على ذكر الرحمن فقط دون الرحيم، ولعل ذلك للدلالة الإيحائية التي ذُكرت فيما سبق[٦]، ألا وهي أن الرحمن تعمّ رحمته المؤمن والكافر، وبما أنه ورد في الآيات التي ذكرت: الممترين، والأحزاب، والظالمين، والغافلين، والموالين للشيطان، والخلف السيء، والأشداء على الرحمن، والواردين النار، والكافرين، والضالين، والمشركين، والمجرمين، واللدودين، ناسب ذلك أن يورد لفظ الرحمن لا غير.

---

[٣] بدائع الفوائد: ٤١/١.
[١] ينظر: شرح المفصل: ١٨٥/٣.
[٢] تفسير الكشاف: ٢٦/١، وينظر تفسير روح المعاني: ٦١/١.
[٣] لسان العرب: ٢٣٠/١٢.
[٤] ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤١٥-٤١٨.
[٥] تَراجع صفحة: ٨.

فالملاحظ أن هذا اللفظ يكاد لا يفارق السورة بأكملها، وربما كانت الدلالة الإيحائية لاقتران آيات العذاب والتوبيخ بلفظ الرحمن هي للتنبيه على أن رحمة الله شملت حتى العاصين والطغاة والمذنبين، بدليل أن رحمته وسعت كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابي أُصيبُ بهِ مَن أشاءُ ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شيءٍ﴾(١) ورحمته سبقت غضبه، كما جاء في صحيح البخاري: قال نبيّنا محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): (لما خلق اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابِهِ، وهو يكتبُ على نفسِهِ، وهو وَضِعٌ عندهُ على العرش: إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي)(٢)، أو ربما لأن صيغة فعلان تستبطن الضد، وهو غضبان، وهذا ما يقابل به الممترين، والأحزاب، والظالمين،... إلخ، ممن سبق ذكرهم، فناسب ذكره هنا.

وإنما لا يمكن التبديل بينهما؛ لأن رحيم ((صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها، وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك))(٣)، وبما أن الآيات ذكرت أصنافاً من الناس المتمردة والعاصية ناسب ذلك أن يأتي بصيغة تدل على الحدوث والتجدد بتجدد وحدوث هؤلاء الأصناف من الناس، ودليل ذلك قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٤)، فباب التوبة مفتوح في كل زمان ومكان، أو في اللازمان واللامكان، أي لا يحده شيء، فناسب أن يأتي بلفظ الرحمن ليشملهم برحمته بعد توبتهم.

وهذا ما يؤكده الإيقاع الصوتي لاسم الرحمن، فالامتداد الصوتي بالألف بعد الميم، يُعد أطول زمنياً من رحيم، وهذا يتلائم مع جو السورة.

والحديث عن الإيقاع الصوتي يقودنا إلى الحديث عن أصوات هذا اللفظ، إذ التدرج من صوت الراء المكرر القوي المفخم إلى صوت الحاء المهموس الرخو المرقق، مروراً بصوت الميم الشفوي اللين، وألف الانفتاح والامتداد، انتهاءً بنون الغنة في طبيعة أصلها(٥) مع دلالة الغنة على إطالة صوت النون واستمراره(٦)، فضلاً عن امتياز الأصوات الثلاثة (الميم، وألف المد، والنون) بالوضوح السمعي(٧)، فيبدأ الاسم بقوة وفخامة ثم ينتقل إلى السكون والهدوء، بعدها الامتداد والانفتاح على الكون كله، إلى أن ينتهي بغنة لينة هادئة، وكأن البنية الصوتية نفسها تنتقل من الجلال إلى الجمال، أو من الهيبة إلى الرحمة، **وهذا إيحاء دلالي سادس**، يوحي بالقوة والقدرة والهيمنة والسعة والشمول والاحتواء، وينسجم مع الجو الوجداني للسورة، فهي من سور الرقة والعاطفة.

ولهذا جاء عن ابن فارس في كتابه (الصاحبي) قوله: ((كل ما كان من الأوصاف أبعد من بنية الفعل، فهو أبلغ؛ لأن (الرحمن) أبلغ من (الرحيم)؛ لأنا نقول: (رحم فهو راحم ورحيم،

---

(١) الأعراف: ١٥٦.
(٢) صحيح البخاري: ١٨٢٧، الحديث: ٧٤٠٤.
(٣) التعبير القرآني: ٣٩.
(٤) مريم: ٦٠.
(٥) علم الأصوات: ١٠٩-١٢٠، والأصوات اللغوية: ٤٦-٨٠.
(٦) ينظر: الأصوات اللغوية: ٦٢.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨.

ونقول: (قدر فهو قادر وقدير)، وإذا قلنا: (الرحمن) فليس هو من (رَحِمَ) وإنما هو من الرَّحْمة))[١]. معنى ذلك أن (الرحمن) من المصدر (رحمة)، والمصدر حدث مجرد من الزمن[٢]. أما (الرحيم) فهو من الفعل (رحِم)، والفعل حدث مقترن بزمن[٣]، ولا شك أن المصدر أبلغ من الفعل؛ لأنه لا يُقيد بزمن، ولأنه يدل على أصل الرحمة لا اشتقاقها من حدث فعلي عارض، **وهذه دلالة إيحائية سابعة.**

ومن خلال ذلك يمكننا أن نصل إلى دلالة إيحائية أخرى ألا وهي أنه ناسب أن يذكر لفظي الرحمة والرحمن دون الرحمن والرحيم للشبه الموجود في لفظي الرحمة والرحمن، إذ كلاهما يدلان على سعة رحمته للزمان والمكان وأن رحمته لا يحدها شيء، أو بمعنى آخر الرحمة الأبدية. **وهذه دلالة إيحائية ثامنة.**

وقد اختلفوا في عربيته، فقيل: إن الرخمن (بالخاء المعجمة) عبراني، والرحيم عربي[٤]، أي بسبب لاحقة المثنى التي أوهمتهم بأنه إلهين: ((لنفور العرب منه فإنهم لما قيل لهم اعبدوا الله، لم يقولوا: وما الله، ولما قيل لهم اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن. ولعل سبب ذلك توهمهم التعدد وأنهم خافوا أن يكون المعبود الذي يدلهم عليهم من جنسهم، فأنكروه لذلك، لا لأنه ليس بعربي))[٥]. أي أنهم لم يشككوا ولم يعترضوا على لفظ الجلالة الله وإنما اعترضوا على لفظ الرحمن بسبب لاحقة التثنية التي تشير إلى وجود رحمانين لا رحمن واحد. وهنا يمكن أن نقول: إن إيراد هذا الاسم في سورة مريم جاء لإثبات الوحدانية لا غير، وذلك بدلالة سياق الآيات التي ورد فيها هذا الاسم، إذ قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدنٍ الّتي **وَعَدَ** الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالغَيبِ إنَّهُ كَانَ **وَعدُهُ** مَأتِيّاً﴾[٦]، و﴿قُلْ مَن كانَ في الضلالةِ **فَليَمدُدْ** لهُ الرَّحْمَنُ مدّاً﴾[٧]، و﴿وقَالُوا **اتَّخَذَ** الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾[٨]، و﴿ ومَا **يَنْبَغِي** للرَّحْمَنِ أنْ **يتخذَ** وَلَدا﴾[٩]، و﴿لَقدْ **أحْصَاهُم وَعَدَّهُم** عَدّاً ۞ وكُلُّهُم **آتيه** يَومَ القِيامةِ فَرْداً﴾[١٠]، و﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **سَيَجعَلُ** لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[١١]. فالأفعال (وعد، ووعده، وفليمدد، واتخذ، وينبغي، ويتخذ، وأحصاهم، وعدهم، وآتيه، وسيجعل) جميعها صدرت من واحد لا متعدد، هو الرحمن، **وهذه دلالة إيحائية تاسعة**، بمعنى دفع توهم التعدد.

واختلفوا أيضاً في صرفه وعدمه، فكما جاء في تفسير الكشاف للزمخشري قوله: ((فإن قلتَ: كيف تقول الله رحمن، أتصرفه أم لا؟ قلتُ: أقيسه على أخواته من بابه، أعني نحو: عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه. فإن قلتَ: قد شرط في امتناع صرف فعلان أن يكون

---

[١] الصاحبي: ٥١.
[٢] ينظر النحو الوافي: ٢٠٥/٢.
[٣] ينظر: المصدر نفسه.
[٥] ينظر: تهذيب اللغة: ٥٠/٥، ولسان العرب: ٢٣١/١٢.
[١] تفسير روح المعاني: ٦٧/١.
[٢] مريم: ٦١.
[٣] مريم: ٧٥.
[٨] مريم: ٨٨.
[٥] مريم: ٩٢.
[١٠] مريم: ٩٤-٩٥.
[١١] مريم: ٩٦.

(فعلان فعلى)، واختصاصه بالله يحظر أن يكون (فَعلان فَعلى)، فلِمَ تمنعه الصرف؟ قلتُ: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على (فعلى) كعطشى، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلانة، كندمانة، فإذن لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض، فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، وهو القياس على نظائره))[١]. فالزمخشري إذن يمنعه من الصرف؛ لأنه في الأصل صفة على وزن فعلان وإن لم يأتِ منه المؤنث (فعلى) غير مختومة بالتاء أو فعلانة بتاء التأنيث؛ فهو وصف خاص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره.

وكذلك إذا قلنا إن لفظ (الرحمن) اسم لا صفة، فهي أيضاً ممنوع من الصرف؛ لأن الألف والنون زائدتان، فإذن يمنع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون.

وفي كلا الأمرين، أي إذا كان صفة أو اسماً، ففي منعه من الصرف **دلالة إيحائية عاشرة،** إذ منعه من الصرف يكسبه تميزاً واستقلالاً يخرجه عن الأسماء والصفات المتداولة، ويكسبه نوعاً من التفرد والاستقلال، إذ لم يستعمل الرحمن اسماً للبشر كما في رحيم وكريم، وفي ذلك نوع من التنبيه لاستقبال اسم غير مألوف في الاستعمال البشري، ودال على الكمال الإلهي.

ولم يأت هذا الاسم في القرآن الكريم، ولاسيّما سورة مريم إلا مضافاً أو معرفاً بأل [٢]. ولهذا يأتي مجروراً بالكسرة، ولكنه لا يصرف أيضاً. وفي تعريفه بأل **دلالة إيحائية متعددة: حادية عشرة، وثانية عشرة، وثالثة عشرة.**

فقد تكون الألف واللام فيه للعهد الذهني، التي يكون مصحوبها معهوداً ذهنياً[٣] فهو معلوماً عند الجميع، فعندما نقول: الرحمن، لا نقصد معهوداً مذكوراً أو حاضراً مادياً، وإنما مذكوراً وحاضراً ذهنياً، فهو ليس أحد الرحماء بل الرحمن المتفرد الذي لا ينصرف الذهن عند الإطلاق إلى غيره.

وقد تكون الألف واللام فيه جنسية تفيد ((استغراق خصائص الأفراد، وهي التي تخلفها كل مجازاً، نحو: زيدُ الرجلُ علماً، أي: الكامل في هذه الصفة))[٤]، والإيحاء بأن الرحمن هو المستجمع لحقيقة الرحمة كلها لا جزءاً منها أو بعضها.

ثم أن تعريفه بالألف واللام يقربه من الاسمية أكثر من الوصفية، فالتعريف بـ (أل) من علامات الأسماء[٥]، ولذلك عندما نقول: الرحمن، يتبادر إلى الذهن الرحمة الواسعة مع ذات الله الرحمن.

---

[٨] تفسير الكشاف: ٢٦/١.
[٢] ينظر:الكليات: ٤٦٧، و تفسير روح المعاني: ٦٨/١.
[٣] ينظر: مغني اللبيب: ٦١/١.
[٤] مغني اللبيب: ٦١/١.
[٥] ينظر: أوضح المسالك: ٢٠/١.

الخاتمة

بعد محاولة التنقيب بين طيات من الكتب، ومحاولة البحث عن ساعات من الزمن، حاولت الدراسة أن تبين معنى مصطلح الإيحاء وتميزه بالجانب العاطفي أو النفسي الذي يؤثر في المتلقي من خلال معانٍ متفردة في سياقات صوتية وصرفية ونحوية، جاءت في سياق سورة مريم.

ومن خلال تطبيق المنهج الإيحائي_ والذي قد يكون صائباً وقد يكون واهماً_ أن الدراسة فرقت بين الرحمة بالتاء المفتوحة، والرحمة بالتاء المربوطة، ووجدت أنها تتعلق بمعنى إيحائي غير الذي ذكره اللغويون. كما أن لفظي الرحمة والرحمن، قد تعلقا بعضهما ببعض لرسم صورة إيحائية لرحمة أبدية ممتدة لا تعرف الزمان ولا المكان، فيردان في آيات العذاب والتوبيخ قبل آيات الحنان والتكريم، وكل ذلك جاء لدلالات إيحائية متعددة انبثقت من لفظين هما الرحمة، والرحمن.

وبفضل المنهج الإيحائي استطاعت الدراسة أن تستخرج إيحاءات متعددة للفظ الرحمن، تجاوزت حدود العشرة، ومن خلال ارتباطه بلفظ الرحمة في سياق سورة مريم ازداد عدد هذه الإيحاءات، التي جاءت منسجمة مع الجو العام للسورة، وهو جو وجداني يُشعر بالهيمنة الرحيمة وامتلائها، فأكثر قصصها قائمة على الرحمة، بدءاً برحمة زكريا ومريم، ثم رحمة إبراهيم

وموسى، بعدها رحمته بالمؤمنين والتائبين. فكأن السورة تعيد تأهيل معنى اسم الرحمن في النفوس، إذ الرحمن هو مصدر الرحمة وأصلها لا العكس، بل أن الرحمة تأتي من الرحمن وتصدر منه، لتشمل حتى العاصين والمتمردين، فصار مصدراً للطمأنينة والنجاة.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسس النقد الأدبي عند العرب، الدكتور أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٦م.
- أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط/١، ١٤١٧ه، ١٩٩٧م.
- الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، د.ط، د.ت.
- أمالي ابن الشجري (هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي، ت: ٥٤٢ه)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/١، ١٤١٣ه، ١٩٩٢م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، ت: ٧٦١ه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، د.ط، د.ت.
- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، الأنباري (أبو البكر محمد بن القاسم بن بشار، ٣٢٨ه)، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دمشق، (د.ط)، ١٣٩١ه، ١٩٧١م.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، ت: ٧٥١ه)، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط/١، ١٤٢٥ه.
- التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الكتب، جامعة الموصل، (د.ط)، ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف، ت: ٧٥٤ هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤١٣ه، ١٩٩٣ م.
- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، ت: ١٢٧٠ هـ)، تحقيق: السيد محمود شكري الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، ت: ٥٣٨ هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/٣، ١٤٣٠ه، ٢٠٠٩م.
- تهذيب اللغة، الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت:٣٧٠ه)، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط)، (د.ت).
- جوهر القاموس في الجموع والمصادر، القزويني (محمد بن شفيع، من علماء القرن الثاني عشر الهجري)، تحقيق: محمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، (د.ط)، ١٩٨٢م.
- دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط/٥، ١٩٨٤م.
- ديوان العجَّاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه)، تحقيق: الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، حلب، سوريا، د.ط، ١٤١٦ه، ١٩٩٥م.
- رسم المصحف (دراسة لغوية تاريخية)، الدكتور غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط/٢، ٢٠٠١م.
- سر صناعة الإعراب، ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني، ت: ٣٩٢ه)، تحقيق: الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط/٢، ١٤١٣ه، ١٩٩٣م.
- الشافية في علم التصريف، لابن الحاجب (جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر الدويني، ت: ٦٤٦ه)، تحقيق: حسن أحمد العثمان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤١٥ه، ١٩٩٥م.
- شذا العرف في فن الصرف، الأستاذ الشيخ أحمد الحملاوي، مراجعة وشرح حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٩٩م.
- شرح الحدود النحوية، الفاكهي (عبد الله بن أحمد بن علي، ت ٩٧٢ هـ)، تحقيق: الدكتور زكي فهمي الآلوسي، بيت الحكمة، بغداد، (د.ط)، (د.ت).
- شرح شافية ابن الحاجب (الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي، ت ٦٨٦ هـ)، عبد القادر البغدادي، ت ١٠٩٣ هـ، تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ط)، ١٩٧٥م.
- شرح المراح في التصريف، العيني (بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الستار جواد، مطبعة الرشيد، بغداد (د.ط)، ١٩٩٠م.
- شرح المفصل، الزمخشري (موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصلي، ت: ٦٤٣ه)، تحقيق: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٢٢ه، ٢٠٠١م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: ٣٩٥ه، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤١٨ه، ١٩٩٧م.
- صحيح البخاري، البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: ٢٥٦ه)، دار ابن كثي، دمشق، بيروت، ط/١، ١٤٢٣ه، ٢٠٠٢م.

- علم الأصوات، برتيل بالمبرج، تعريب: الدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، د.ط، د.ت.
- علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط/٥، ١٩٩٨م.
- علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، الدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب، ت: ٨١٧هـ)، إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط/٢ ، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- الكتاب، سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت: ١٨٠ه)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٣، ١٤٠٨ه، ١٩٨٨م.
- كشف الوافية في شرح الكافية، الحلبي (سراج الدين محمد بن عمر الحلبي، ت: ٨٥٠ه)، تحقيق: سعيدة عباس عبد القادر شهاب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ه.
- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، ت: ١٠٩٤ه)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/٢، ١٤١٩ه، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري، ت: ٧١١ه)، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٨م.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده (علي بن اسماعيل بن سيده، ت: ٤٥٨ه)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط/١، ١٣٧٧ه، ١٩٥٨م.
- معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل صالح السامرائي، المكتبة الوطنية، بغداد، ط/١، ١٩٨١م.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت: ٣٩٥ه)، تحقيق: الدكتور محمد عوض مرعب، والآنسة فاطمة محمد أصلان، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ه، ٢٠٠٨م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، مصر، د.ط، ١٩٨٨م.
- المعنى والأسلوب، أولمان(غير مترجم)، نقلاً عن: علم الدلالة: ٤٠.
- المعنى وظلال المعنى (أنظمة الدلالة في العربية)، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ط/٢، ٢٠٠٧م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام ابن هشام الأنصاري، ت: ٧٦١ه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، د.ت.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ت ٥٠٣ هـ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، منشورات ذوي القربى، بيروت، لبنان، ط/١، ١٩٩٦ م.
- النحو الوافي، الأستاذ عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط/٣، ١٩٧٤م.